

«تحفة الحذاق بشرح لامية الزقاق

دراسة

حذاقة ومهارة الناظم والشارح على حد سواء، وعمل الباحث فيها يدخل في زمرة الرسائل الجامعية الهادفة إلى تقريب وتيسير عيون التراث المالكي، وإخراجها إلى الوجود لتصبح في متناول الباحثين المهتمين، باعتبار أن لامية الزقاق من المنظومات التي كانت معتمدة في التدريس بجامعة القرويين، وتتناول جانب الأحكام والمعاملات المالية، وقد أبان من خلالها عن تمكن الشارح سيدي عمر الفاسي، كتمكن الناظم سيدي علي الزقاق، مما جعل النظم بتحفته سهل المأخذ.

والناظم سيدي علي الزقاق أبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الفاسي، اشتهر بالزقاق لأن أحد أجداده كان لا يعيش له ولد، وسكب زق زيت على واحد، فعاش ذو

ت تقدم الباحث أحمد الإدريسي لمناقشة رسالته لنيل الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، شعبة الدراسات الإسلامية، وحدة «فقه الأموال في المذهب المالكي من خلال تراث الغرب الإسلامي»، وذلك بتاريخ: 18/07/2011، وقد كانت في موضوع «تحفة الحذاق بشرح لامية الزقاق لأبي حفص عمر الفاسي (ت1188هـ)، دراسة وتحقيق» بإشراف فضيلة الدكتور إدريس الفاسي الفهري.

إن «تحفة الحذاق» -كما اختار سيدي عمر الفاسي الفهري (ت1188هـ) أن يسمى بها شرحه للامية الزقاق لسيدي علي الزقاق (ت912هـ)-، كانت تحفةً في الشرح كما كانت الزقاقية تحفة في النظم، وقد أثبتت

لأبي حفص عمر الفاسي (ت1188هـ) « وتحقيق

- «المنهج المنتخب في قواعد المذهب»، وهي منظومة في القواعد.

- «شرح على مختصر الشيخ خليل».

- «لامية الزقاق» -موضوع الرسالة- وهي منظومة فريدة في فقه الوثائق والأحكام، وعنوانها الكامل: «تحفة الحكام بمسائل التداعي والأحكام»، يقول الدكتور عمر الجيادي مبيّنا قيمة هذا النظم: «وفي القرن العاشر انضم إلى المصدرين السابقين، مصدر ثالث هو نظم الزقاقية في فقه القضاء لناظمه أبي الحسن علي بن قاسم الزقاق المتوفى سنة 912هـ، وقد كان لهذا النظم من الاهتمام من طرف الدارسين ما لنظم ابن عاصم، فاعتنوا به دراسة وشرحا⁽³⁾، وقد افتتحها رحمه الله بمقدمة تضمنت الثناء على المولى

الزق، فكني بالزقاق، وقد كثرت الشهادات التي تزكيه، قال عنه الشيخ المنجور في شرحه المنهج المنتخب إلى أصول المذهب: «كان رحمه الله فقيها مشاركا في فنون عدة خيرا دينا صالحا، متقنا لمختصر خليل كثير الاعتناء به والتقييد عليه، مشاركا في فنون النحو والأصول والحديث والتفسير والتصوف، دينا، فاضلا، زوارا للصالحين...»⁽¹⁾، جاء في سلوة الأنفاس: «كان رحمه الله من فحول العلماء الأعلام وجهابذة أئمة الإسلام، عارفا بالفقه، متقنا لمختصر خليل، كثير الاعتناء به والتقييد عليه، والبحث عن مشكلاته، مشاركا في فنون من النحو والأصول والحديث والتفسير والتصوف وغيرها، خيرا دينا ذا سمت حسن»⁽²⁾. وقد خلف مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون منها:

- الفصل التاسع: مسائل يعول فيها على العرف، في سبعة أبيات.

- الفصل العاشر: التوثيق وأدب الموثق، في واحد وخمسين بيتا.

لينهي النظم بالدعاء إلى الباري عز وجل أن يوفق قضاة المسلمين، وأن يحتّم له بالحسنى و الرضى والعفو، وأن ينفع من يعمل به، وكان ذلك في الأربعة عشر بيتا الأخيرة.

أما فيما يخص الشارح سيدي عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف الفاسي الفهري أبو حفص ابن الشيخ العلامة سيدي يوسف الفاسي الفهري الجليل الولي الكامل أبي المحاسن أبو حامد سيدي العربي، نشأ في كنف أبيه مقبلا على أصناف العلم بعيدا عن اللهو، عمل على تكوينه جلة من الشيوخ والعلماء اللذين أخذ عنهم وتلمذ على أيديهم ونهل من معين علمهم، حتى اشتد عوده في العلم والمعرفة فأصبحت له مكانة مرموقة يشهد لها الكثيرون، حتى وصف بسلطان المحققين، توفي رحمه الله تعالى بفاس العامرة فجر يوم الخميس تاسع وعشرين من رجب الفرد الحرام، عن سن يناهز ثلاث وستين سنة، ودفن بزاوية جده الشيخ أبي المحاسن يوسف.

خلف رحمه الله العديد من المؤلفات التي كانت ذات نفع كبير للأمة، منها في العقيدة: «طلائع البشرى فيما يتعلق بشرح العقيدة الكبرى»، و«حاشية على شرح العقيدة الكبرى

عز وجل والصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ وعلى آله وأزواجه أمهات المؤمنين وصحبه، ثم نوّه بفضل العلم والتفقه في الدين مستدلا بحديث شريف، ثم تحدث عن علم القضاء ومزاياه وقيّمته في المجتمع وخطر هذا المنصب، مع الترغيب والترهيب من توليه، ثم ذكر الخطط الشرعية الست التي تليها، وكان ذلك في اثني عشر بيتا.

ثم قسم اللامية إلى عشرة فصول عنونها المحقق كالآتي:

- الفصل الأول: في كيفية ابتداء الحكم والشروع في القضاء، في خمسين بيتا.

- الفصل الثاني: ولاية القاضي للمحجور والمهمل والغائب، في واحد وعشرين بيتا.

- الفصل الثالث: في الشهادة وشروط قبولها: في ستة وثلاثين بيتا.

- الفصل الرابع: في التوكيل والوكالة، في ثمانية وعشرين بيتا.

- الفصل الخامس: في الإبراء، في ثلاثة عشرة بيتا.

- الفصل السادس: في التوليج، وذلك في ثلاثة عشر بيتا.

- الفصل السابع: في آداب القضاة وبعض الأقضية في ستة عشر بيتا.

- الفصل الثامن: فيما جرى به العمل بفاس، وهي ثمان عشرة مسألة، في خمسة عشر بيتا.

- يقيد شوارده: يأتي بما ند عنه من الأحكام، ولم يستحضره المصنف أو لم يذكره، فيعمل على رد الأقوال إلى قائلها، فكان يشير إلى مصادر النصوص ومراجعها.

وقد اختار صاحب الرسالة أن يضع خطة لتحقيق «التحفة»، تكون خادمة للأهداف التي سطرها ووضعها لبحثه، فجاء هذا العمل مشتملا على قسمين: قسم الدراسة، وقسم التحقيق.

أما القسم الأول من الرسالة فقد مهد له بمدخل رام فيه الحديث عن فقه القضاء تعريفًا، وبيانًا لشروطه، كما تحدث عن كتب الأحكام، وقد جعل هذا القسم على بابين:

خصص الأول منها للتعريف بالناظم سيدي علي بن قاسم الرزاق الفاسي (912هـ) رحمه الله، وشيوخه وتلاميذه، وآثاره، وكذا وفاته، كما عرف بمنظومته، وبمنهجها فيها، والشروح والحواشي التي وضعت عليها.

أما الباب الثاني فخصصه الدارس للشارح «سيدي عمر الفاسي الفهري» رحمه الله، ومنهجها في تحفته.

ومن جهة أخرى بين صاحب الرسالة تبعًا لذلك المنهج الذي اعتمده في تحقيقه للتحفة، فتحدث عن ذلك كله عبر ثلاثة فصول:

- خصص الأول منها للحديث عن الشارح، والبيئة التي عاش فيها وعاصرها في جانبها

للسنوسي، وفي الفقه وأصوله له «غاية الإحكام في شرح تحفة الأحكام»، وهو شرح لأرجوزة ابن عاصم، وله «إحكام أحكام الزكاة للإحكام»، و«تحرير النظر في مسائل المختصر»، وغيرها كثير في مختلف العلوم.

أما فيما يخص شرحه «تحفة الحذاق بشرح لامية الرزاق»، فقد حظي باهتمام العلماء وتنويعهم لما فيه من فوائد جمة، ولارتباطه بفقه الأموال ارتباطًا وثيقًا، وقد سلك الشارح منهجًا خاصًا، يظهر من خلال قوله رحمه الله: «فقيدت على النظم المذكور شرحا يحل رموزه، ويفتح كنوزه، وينظم فرائده، ويحرر فوائده، ويقرر شواهده، ويقيد شوارده»⁽⁴⁾، فحدد ملامح منهجه، في ست نقاط هي كالآتي:

- حل رموزه: بمعنى يشرح الكلمات الغريبة، فيبين أصل اشتقاقها ويشرحها حتى يتضح المعنى ويفهمها القارئ، وقد يضبط بعض مواضع الإشكال في قراءة الكلمة.

- يفتح الكنوز: يحلل مضامينه المركزة.

- ينظم فرائده: يجمع ما انفرد به دون غيره من المصنفات في الباب الواحد من العلم.

- يحرر فوائده: يحرر الأحكام الفقهية، وبيان ما يجري عليه الحكم في كل مسألة.

- يقرر شواهده: يبين أدلة مسائله من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما يستند عليه.

وقد جاء عمله وفق الخطوات الآتية:

- جمع نسخ المخطوط، ووضع رمز لكل نسخة، وإثبات الفروق بين النسخ سواء أكان لها تأثير في المعنى أم لا، وإثبات ذلك في الهامش.

- كتابة المتن ووضع علامات الترقيم، وترتيب النص لفقرات حسب المعنى، مع الفصل بينه وبين الهوامش.

- ترقيم الفقرات الواردة تحت العنوان الواحد ووضع عناوين هامشية متى اقتضى السياق ذلك، تيسيرا للقراءة والفهم.

- شكل الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والآثار، وأبيات المنظومة الزرقاقية، وأبيات ابن عاصم، والشواهد الشعرية، وكل ما أشكل فهمه من الألفاظ والعبارات.

- تخريج وتوثيق وخدمة النص، وذلك بتخريج الآيات القرآنية الواردة في المتن بالإحالة على اسم السورة والآية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، والآثار، وشرح ما أشكل فهمه من الألفاظ انطلاقا من المعاجم وقواميس اللغة، وكذا توثيق أقوال العلماء بالرجوع إلى مصادرها وأمّهات كتب المذهب، بالإضافة إلى تخريج الأشعار بالاعتماد على الدواوين والمجموعات الشعرية، وأمّهات كتب اللغة والأدب، وترجمة الأعلام والبلدان الواردة في المتن ترجمة موجزة.

- شرح المصطلحات والعبارات الواردة في المتن.

الاجتماعي والسياسي والثقافي، كما تعرض للحديث عن حياة الشارح رحمه الله تعالى، وآثاره ومكانته ووفاته.

- ثم انتقل في الفصل الثاني للتعريف بالشرح وآراء العلماء فيه، ومنهجية الشارح فيه، وكذا تعليقاته والمصادر التي اعتمدها، ليختم الفصل بمبحث بين فيه منهج المؤلف في تناول الأحكام الفقهية المالية

- أما الفصل الثالث: فخصصه الباحث لدراسة المخطوط وبيان نسبة الكتاب إلى صاحبه وبيان رموز ومنهج التحقيق.

القسم الثاني: قدم فيه المحقق النص المحقق لشرح تحفة الحذاق وما بذله من وسع في الثبوت والتدقيق والترتيب والتوثيق.

منهج المحقق في عمله:

عمل المحقق بداية على تحقيق عنوان الكتاب، حيث أثبت وجوده في النسخ المعتمدة في المقابلة، كما أثبت نسبة الشرح لصاحبه، يُعلم ذلك من قول سيدي عمر الفاسي في خطبة الكتاب، «أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى عمر بن عبد الله الفاسي كان الله له... وسميته تحفة الحذاق بشرح لامية الزقاق، ومن الله تعالى استمد...». ولإخراج النص الصحيح للعمل كما كتبه صاحبه دون زيادة أو نقصان أو تحريف أو تعسف أو أي شيء مما قد يغير المعنى، اعتمد المحقق منهج التحقيق بطريقة النص المختار، اعتمادا على النسخة الأصل وهي نسخة الخزانة الحسنية رقم 3364.

في جانب الأحكام والمعاملات المالية، وذخيرة علمية ضخمة.

- تميز الشارح بطريقته الخاصة في استنباط الحكم من النصوص ومناقشة القضايا الأصولية والفقهية، والترجيح بين الأقوال (خاصة داخل المذهب المالكي) مع الجرأة في النقد وتصويب الآراء، ومناقشة العلماء بأدب، مدعماً رأيه بالحجة والبرهان مما يدل على سعة علمه ورسوخ قدمه في المذهب المالكي.

- اتباع الشارح منهجاً فريداً في شرح المنظومة وتحليلها ومناقشتها، مع الإكثار من النقول لبيان معاني المنظومة.

- أن التحقيق يتيح للباحث فرصة للإطلاع على جل العلوم الشرعية ويكسبه ملكة لغوية ومنهجية علمية هامة، ويتميز بمتعة علمية خاصة.

- ضرورة تضافر الجهود من كل الجهات المعنية لإخراج تراثنا مطبوعاً ومكتوباً.

- ترجمة الأعلام الواردة في النص المحقق.

- وضع مجموعة من الفهارس تُيسر للباحث الوقوف على مراده بيسر وسهولة وهي:

- فهرس الآيات القرآنية.

- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

- فهرس الآثار.

- فهرس الأعلام المترجم لهم.

- فهرس الأماكن والبلدان.

- فهرس الأشعار والأراجيز.

- فهرس المصادر والمراجع (المخطوطة والمطبوعة).

- فهرس المحتويات.

وفي نهاية العمل وضع المحقق، خاتمة جامعة ضمنها مختلف النتائج المتوصل إليها، أكد فيها على أهمية تحقيق كتب الأحكام وما فيه من فوائد إذ تساعد على الإطلاع على أحكام وفتاوى السلف، وكيفية تعاملهم مع القضايا المعروضة عليهم في المعاملات المالية، وقد أجمل مختلف استنتاجاته من هذا التحقيق كالآتي:

- أن الشارح سيدي أبي حفص عمر الفاسي كان لغوياً وفقهياً وقاضياً، خابراً للواقع ومشاكله الاجتماعية، متبحراً في الكثير من العلوم.

- أن هذا الشرح المحقق يعتبر من أهم مؤلفات المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، خاصة

الهوامش

1. انظر ص 19 من الدراسة.

2. سلوة الأنفاس 2/84.

3. مباحث في المذهب المالكي للدكتور عمر الجيدي 100.

4. انظر ص 138 من التحقيق.